النثر الفني عند النشأة

للدكتور أحمد الحوفي

أستاذ الأدب العربي
بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

لست اريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما أسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب اليه المسيو مرسيه من جهل العرب للنثر الفنى حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وان اناقش ما ذهب اليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فنى نشعر فى قراءته بمتعة .
وساتابع فى هذه المناقشة النثر الفنى بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية الى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

في أدبنا العربي ، وفي تاريخنا الاسلامي ، وفي ثقافتنا وحضارتنا وتراثنا بعامة ، في هذا كله قضايا ما زال كثير منها يعوزه البحث والتقصي والتصفية والجلاء .

ومن هذه القضايا نشأة النثر الفني .

فقد رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية ، بل نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان .

ومن هؤلاء المسيو مرسيه ، اذ رأى أن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل ، وذهب الى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والامثال .

وعلل هذا بانهم كانوا يعيشون حياة أولية بدائية ، وهي لا تقتضي نثرا فنيا ، لان النثر الفني لغة العقل والثقافة ، وانما يلائم هذه الحياة الشعر ، لانه لغة العاطفة والخيال .

ثم تابعه الدكتور طه حسين ، فذهب الى أن الشعر سبق النثر الفنى ، ورأى أن مطلع القرن الثانى الهجرى هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد نشأة النثر الفني ، وفي رأيه أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية هو عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع ، وان كان قد عاد فاكد اصالة النثر الفني عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

ولست أريد أن أناقش قضية الشعر والنثر وأيهما اسبق ، بل أريد أن أناقش ما ذهب اليه المسيو مرسيه من جهل العرب للنثر الفني حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، وأن اناقش ما ذهب اليه الدكتور طه حسين من أن نثر عبد الحميد وابن المقفع كان أول نثر فنى نشعر فى قراءته بمتعة .

وساتابع في هذه المناقشة النثر الفني بقسميه : خطابة وكتابة منذ الجاهلية الى عصر عبد الحميد وابن المقفع .

- I -

ليس من شك في أن العرب قوم ذوو لسن وبلاغة

وبيان ، وأنهم كانوا كلفين بروعة التعبير ، وجمال التحبير ، ورشاقة الاداء ، والتحرر من زلل الكلام وركاكة المقال .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » وفي قوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا ، ومعللا لمدحه وقدحه : «ان من البيان لسحرا » .

ولهذا كانت معجزة النبي من جنس ما تميزوا به ، وهو بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

— 2 —

نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة العظمى في البيان العربي ، شدة العرب بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء في ذلك من شرح الله صدورهم للاسلام ، ومن أصروا على الكفر والعناد .

أما الذين اسلموا فقد آمنوا بان القرآن منزل على النبي من عند الله .

وأما الذين لم يسلموا فانهم أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، ولكنهم زعموا انه من صنع النبي ، وزعموا أنه اوتي مقدرة خارقة ، فاتهموه بانه ساحر وبانه شاعر .

واذا كان القرآن ذروة البيان العربي ، ونزل بلسان عربي كما يصفه الله تعالى ، فانه من الطبيعي أن يكون العرب قبيل الاسلام قد مارسوا النثر الفني ممارسة اعدتهم لان يخاطبوا بالقرآن ، فان الله تعالى يقول « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

ثم ان الله تعالى تحداهم في عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذي عرفوه والفوه وتباهوا به ما تحداهم هذا التحدي ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الامهال ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

— 3 —

ولكننا ما زلنا في حاجة الى نصوص نطمئن اليها في التدليل على معرفة العرب للنثر الفني قبل الاسلام ، لان الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وان كان فقدان هذه النصوص التي نطمئن الى صحتها لا ينهض دليلا على جهالتهم بالنثر الفني .

ومعلوم أن للعرب في جاهليتهم امثالا كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والاغفال ، وبقي الى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الامثال المدونة نعرفه اليوم هو كتاب المفضل الضبي المتوفى سنة 178 هـ.

ولسنا نرتاب في نسبة هذه الامثال الى العصر الجاهلي كما نرتاب في الخطب والوصايا ، لان في طبيعة الامثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها ، لانها تمثل تجارب سابقيهم وآراءهم واحكامهم ولانها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشاهدون نظائر لها ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ، ويرددونه في الحدث الحاضر . ثم انها تصور الوانا من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة في تصويرها حينما قيلت ، ولا تزال صادقة في تصويرها حينما يتمثل بها مرددوها .

ولكن ما علاقة الامثال الجاهلية بالنثر الفني ؟ .

في كثير من هذه الامثال صفات ترتفع بها عن اللغة المالوفة في الحياة المعتادة الى لغة فيها براعة وافتنان.

1 — فهي مرسلة في تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، فيه أحيانا عناية بالجرس والتوازن والايقاع ، ولهذا نجد فيها سجعا وتماثلا في عدد الكلمات ، مثل : « ادرعوا الليل ، فانه أخفى للويل » ومثل : «اليوم خمر وغدا أمر » ومثل : « رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » ومثل : « ان البغاث بارضنا يستنسر » ومثل : «تجوع الحرة ولاتاكل بثديبها» ومثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

2 — وهي أحيانا تعتمد على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة ، لتوحي بالمعنى المراد في ثوب من الخيال ،

كقولهم : « كل مجر في الخلا يسر » لان الذي يجرى فرسه وحيدا في الخلا ينخدع بسرعته ، فاذا سابق به غيره تبين له بطؤه وضعفه ، ويضرب هنا المثل في وصف المغرور بما يتوهم فى نفسه من ميزات ومواهب أو بما يمتلك من اشياء يظن أنه وحده المالك لها ، بغير أن يتبين ما عنده بما عند الناس .

وكقولهم في من يتنصل من خلق فيه أومن وصف ثابت له ، فيدعى انه طارىء عليه ، كان يكون جبانا فيزعم انه لم يجبن الا لمرض نزل به ، أو يكون حقير النشأة فيدعى ان الدهر هو الذي افقده مجده : « قبل النفاس كنت مصفرة » لان المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها اثر من آثار النفاس .

وكقولهم في وصف من أرتكب عملا قبيحا يستحيى منه ، ويريد أن يستخفى من الناس : « جاء كخاصى العير » ، لان خصاء العير عمل قبيح شاذ ان صح أن يحدث فانه لا يقوم به الا الحقير .

3 ـ وقد يعتمد المثل على التشخيص ، اذ يضفى صفات العقلاء على غير العقلاء ، من شعور وادراك وفهم وتعقل ورزانة وتهور ، كقولهم في من يكتم السر : « أكتم من الارض » كأن الارض انسان يسمع سرا ويكتمه .

وكقولهم فى وصف البخيل : «أبخل من كلب» كأن الكلب انسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ويفعل كل ذلك عن روية وتدبر .

وكقولهم فى وصف الاحمق : «أحمق من رجلة لانها تنبت في مجاري السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأي وارادة واختيار ، وهي التي اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه .

ـ 4 ـ

فاذا ما انتقلنا الى الخطابة وجدنا العرب يحتفون بها منذ العصر الجاهلي ويفتخرون باجادتها ، ويمدحون بالبراعة فيها ، كقول لبيد مفتخرا :

ومقام ضيق فرجته بيبان ولسان وجدل

وقول قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن

وقول ابي قردودة الطائي في رثاء ابن عمار الطائي ان قاتليه حرموا الناس كرمه العظيم ومنطقه الجميل الاخاذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمن :

يا جفنة كازاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبره

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لان الكتابة كانت نادرة ، وانما كانوا يفكرون في مقالهم ، ويحبرونه ويزينونه ، ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ : « كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك اذا احتاجوا الى الرأي في تعاظم التدبير ومهمات الامور ذللوه في صدورهم ، وقيدوه على انفسهم ، فاذا قومه الثقاف ابرزوه محككا منقحا ومصفي من الادناس مهذبا»

ومعنى هذا أنهم كانوا يعمدون أحيانا الى الاعداد والتزيين والتنميق ، كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم جاء الاسلام فازدادت الخطابة رفعة وقوة ، وكثرت الخطب المعدة التي نتبين من قراءتها مظاهر التأنق والتجويد والترتيب ، سواء أكان الاعداد مكتوبا أم غير مكتوب ، يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال انه كان في يوم السقيفة قد زور ـ أعد وحبر ـ كلاما ليقوله ، ولكن أبابكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئا مما كان عمر يريد أن يقول .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر ، فارتج عليه ، فقال : « ان ابا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وانتم الى امام عادل أحوج منكم الى امام خطيب وستاتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله » .

وهذا النص صريح في أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما ، أو بعض خطبهما وفى أن عثمان قد فوجىء وهو غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجيء على النسق الذي يرضاه ويرضونه .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي ـ حينما ولوه رياستهم ـ أن يخطب فيهم ، فقال «وما انا والرأي الفطين ، والكلام القضيب» .

واشتهر واصل بن عطاء بانه كان يجتنب الراء في

خطبه ، ليخفي لثغته ، وليس لهذا تعليل الا انه كان يعد خطبه ، ويتمهل في اعدادها .

على أن طابع الاعداد والتانـق يتضـح في كثير من خطب العصر الاموى ، كخطبة زياد بالبصـرة وخطبتى الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير ، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة ، لان هذه الخطب ونظائرها موحـدة المـوضوع مرتبـة الافكار ، بارعة التعبير متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع معتمدة على الوان من الخيال .

وهي بهـذا كله قـد استكملت خصائص النثر الفني التي قيل انها جدت فيما بعـد على قلـم عبـد الحميد وابن المقفع .

— 5 —

لم تكن الـكتابة في زمن النبى صلى الله عليه وسلم بحاجة الى تنميق واحتفـال خاص ، لان الغايـة منها مقصورة على تبليغ الفكرة من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا في بعضها الاحتفال والتحبير ، كرسالته الى أبى موسى الاشعرى في القضاء ، ثـم اتضح التنميـق اكـثر في الرسائـل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزياد .

ولما ءال الامر الى معاوية انشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عربت دواوين الخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يتولاها عرب حذقوا العربية كسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد بن يحيى .

ولاشك أنه كان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربـين فضل عظيم في النهوض بالكتابة الفنية ، لانهم منقطعون لهـا ، ولان بقاءهـم في الدواوين مـوصول بمهارتـهم وتجويدهم .

ولكن ليس معنى هذا أن النثر الفني لم يعرف الا في رسائل عبد الحميد لان كثيرا ممن كانوا يملون الرسائل أو يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه ، فجاءت رسائلهم بليغة الصياغة طريفة الخيـال ، كقول معاويـة لزياد : «اما بعد فانك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها .

لا أم لك ، بل لا أبالك ، قد هلكت واهلكت ، وظننت انك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ، هيهات ، ما كل ذي لب يصيب رأيه ، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته ، أمس عبد واليوم أمير ، خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية » .

وكقول زياد في رده على معاوية : « وجدتك كالغريق يغطيـه المـوج ، فيتشبـث بالطحلب ويتعلق بارجـل الضفادع ، طمعا في الحياة ، فاما سبك لي ، فلولا حلم ينهاني عنك ،وخوفي ان أدعى سفيها ، لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء ، وأما تعييرك لي بسميـة فان كنت ابن سمية فانت ابن حمامـة ، واما زعمـك أنك تختطفني ، فهل رأيت بازيا يفزعه صفير القنابـر ؟ أم هـل سمعت بذئب أكله خروف ؟ » .

وعلى هذا النمط كثير من الرسائل المتبادلـة بـين علي ومعاوية ، وبين الحجاج وقطرى ، وبين عبد الملك ومحمد بن الحنفية وغيرهم ممن كتبوا أو أملوا قبل عبد الحميد وابن المقفع .

— 6 —

على اننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح ، فنعقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبـد الحميد وصفاته في الرسائل التي كتبت قبـل أن يخـط عبـد الحميد سطرا .

فما نا نجد ؟ .

نجد اتفاقا وتشابها في الجوهر ، ولا نجد اختلافا الا في الشكل والمظهر .

وذلك اننا نلاحـظ ان عبد الحمـيد كان يطـيل آنا ، ويوجز آنـا ، مراعيا ما يقتضيه المـقام ، وما تتطلبـه المناسبة ، ولكنه لم يبتدع هذا التنويع ، لان الرسائل التي كتبت قبلـه كانت تطول أحيانـا وتقصر أحيانا ، مجاراة للموضوع ومراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الافـكار وتوليد المعاني أو تاكيدها بالترادف ، ولكن قد سبقـه

الى هذا كثير ممن أملوا رسائل فى العصر الاموى ، وممن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى نظرنا أن عبد الحميد يجنح احيانا الى الخيال ليبرز افكاره ، ويجسم عواطفه ، ولكن هذا ليس بجديد ، لان في بعض الرسائل الاموية الوانا من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن اخيلة عبد الحميد ، ان لم يفتها بهاء واصالة ، كما نرى فى رسالتي معاوية وزياد ، وكقول قطرى للحجاج : « لئن أبرز الله لي صفحتك ، وأظهر لي صلعتك ، لتنكرن شعبك ، ولتعلمن أن مقارعة الابطال ليس كتسطير الامثال» وكقول المهلب بعد انتصاره على الازارقة : « فاعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الامل ، فصاروا دريئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا » .

واذا كان عبد الحميد اعتمد على التانق والتجويد ، لانه كاتب مختص بالكتابة فان كثيرا من رسائل العصر اعدها كاتبوها وتانقوا فيها ونمقوها .

على انني لست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل الجمل ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذي لا استكراه فيه وأنه كان يرتب افكاره فى كثير مما يكتب ، ولكنني اذكر أن هذه الصفات كلها محققة في كثير من رسائل العصر الاموي قبل عبد الحميد .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتانقه في البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ، واطالته في البدء بعبارات التحميد والثناء ، ولكن هذا لا يصح أن ينهض دليلا على انه أول من كتب في العربية نثرا فنيا ، ولا يصح أن يموه به احد لينفى عن العرب معرفتهم النثر الفنى قبل عبد الحميد ، لان الحكم ينبغى أن ينصب على الاصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولان النثر الفني ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التانق والاطناب في مطالع الرسائل وخواتمها ، وانما كان يفقد خواصه الاصيلة لو انه جاء خلوا من التجويد والتنميق وتوخى الجمال والتاثير .

— 7 —

واذن فقد كان النثر الفنى معروفا للعرب قبل عبد الحميد .

وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد .

ثم جعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على السنة العرب الذين أملوا ، وعلى اقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الاموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف نضجه ، وكان عبد الحميد أول كاتب في الديوان اشتهر بكتابته ، وذاع صيته ، وظهرت في آثار قلمه خواص من سابقوه ومظاهر شكلية ابتكرها ونسبت اليه.

ومعنى هذا أن النثر الفنى العربي لم يكن يونانى النشاة ولا فارسي المولد ، بل انه نشأ عربيا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر وكما نشأت الخطابة والحوار والامثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النثر الفني بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب الفرس وعلوم اليونان .